الزهراء

ج ٥ : م ١ — ١٥ جمادى الاولى ١٣٤٣

مدينة الزهراء

ـ بمناسبة التنقيب الجاري الآن عن آثارها ـ

نحن وآباؤنا ـ عبد الرحمن الناصر وعرش الاندلس ـ الخلافة بين بغداد وقرطبة سبب بناء الزهراء وذكر موضعها ـ صفة الزهراء ومكنوناتها ـ كيف بنيت الزهراء ملك اسباني بين يدي الخليفة في الزهراء ـ الحياة في الزهراء ـ خراب الزهراء

﴿ نحن وآباؤنا ﴾

أقفُ اليوم مع قرائي أمام أثر من آثار العرب عظيم ، لرجل من رجال العرب عظيم

أقفُ معهم أمام ذلك البناء البديع ، بل أمام الحضارة التي أبدعته ، بل العزيمة التي أوجدت تلك الحضارة .. لا لأجل أن نفتخر بالعزّ الذي كان لآبائنا ، فان في ظل هذا الفخر الكاذب اعترافاً بالذلّ مؤلماً ؛ وانما أردتُ باستعراض هذه الصفحة من تاريخنا أن نتذكر الى أيّ مدًى من قيادة زِمام مدنيّة العالم استطعنا أن نصل في ثلاثمائة سنة فقط ، بعد أن كنا وراء العنصرين الروماني والفارسي مئات المراحل في مظاهر العمران

﴿ عبد الرحمن الناصر وعرش الاندلس ﴾

انقضى القرن الثالث الهجري في ديار الاندلس بانقضاء عهد صاحبها الامير عبد الله ابن الامير محمد ابن الامير عبد الرحمن الاوسط ابن الامير الحَكَم ابن الامير هشام ابن الامير عبد الرحمن الداخل صقر قريش ابن معاوية ابن الخليفة هشام بن عبد الملك بن مروان . ففي شهر ربيع الاول من سنة ٣٠٠ انتقل هذا الامير الاموي الى رحمة ربه وله من أولاده الذكور أشبالٌ عشرة مامنهم الاَّ المعمُّ المخول في طبقات السؤدد ، الدخَّال الخرَّاج في مذاهب المجد ، بل كان أعمامهم ـ اخوة الامير الراحل ـ لايزالون في عالم الوجود ، تُظلُّهم زرقاء الاندلس وتقلهم خضراؤها . لكن البطولة التي لا تتقيَّد بسن ، والعظمة التي لا تعترض سبيلَها سلسلةُ المراتب ، أوصلت الى كرسي الملك فتى في مقتبل العمر هو الامير عبد الرحمن بن محمد ـ حفيد صاحب الاندلس المتوفَّى ـ فتصدَّى الفتى الى الامارة واجتازها دون أعمامه وأعمام أعمامه ، أيام كانت الاندلس « مضطربة بالمخالفين ، مضطرمة بنيران المتغلبين . فأطفأ تلك النيران ، واستنزل أهل العصيان ، واستقامت له الأندلس في سائر جهاتها بعد نيف وعشرين سنة من أيامه »

﴿ الخلافة بين بغداد وغرناطة ﴾

وكان بنو العباس بن عبد المطلب رحمهم الله يُعانون في تلك الحقبة من الزمن نتائج الغلطة السياسية الكبرى التي ارتكبوها في صدر دولتهم ، وهي تحويل وجوههم عن سُلالة الرجال الذين بنوا دولة الاسلام بأيديهم ، وشادوا دعائمها على جماجمهم ؛ فانصرف العباسيون عن هؤلاء الغُرِّ الميامين من وجوه عدنان وقحطان ، إلى أوشاب من الغلمان والمماليك « لم يكن لهم ذلك العقل الذي راضَهُ الاسلام ، والقلب الذي هذَّبه الدِّين . بل جاءوا الى الاسلام بخشونة الجهل ، يحملون ألوية

الظلم لبسوا الاسلام على أبدانهم ولم ينفذ شيء منه إلى وجدانهم » كما قال الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رحمه الله . فغربت شمس السلام عن دار السلام ، والتاث أمر الخلافة ، واستبدّ الموالي من الترك على أمراء المؤمنين . وطارت الأنباء سنة ٣٢٠ من بغداد عاصمة المشرق إلى غرناطة عاصمة المغرب بأن مؤنساً — وهو أحد أولئك الموالي — أراد أن ينتقم لنفسه من فشله قبل ثلاثة أعوام في خلع مولاه الخليفة المقتدر بالله [1] فسار من الموصل الى بغداد بجنوده وسفكوا دم أمير المؤمنين وأسقطوا هيبة الخلافة من نفوس الشعوب الاسلامية والدول الاجنبية

لما رأى عبد الرحمن الناصر — وهو ذلك الرجل العظيم بشخصه ، العظيم ببيته ، العظيم بدولته — أنّ مقام الخلافة تدلّى بعبث الموالي الى هذا الدرك ، استخار الله تعالى في أخذ هذا العبء على عاتقه ، وأقره على ذلك حكماء قرطبة والاندلس وأئمة العلم فيها ، فتلقّب بألقاب الخلافة ، وكان لها في عاصمة الاندلس رَونقٌ أستمدّته من العلم والعمران ، وهيبةٌ حاطتها بها انتصارات الجيوش وعزّة السلطان ؛ فوطئت عساكرُ الاندلس من بلاد الافرنج أيام أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر ما لم تطأه في أيام سلفه ، ومدّت اليه أمم أوربا من وراء الدروب يد الاذعان ، وأوفدوا عليه سفراءهم وهداياهم من رومةَ والقسطنطينية في سبيل المهادنة والسلم والاعتمال فيما يعنّ في مرضاته ، ووصل الى سدّته الملوك من أهل جزيرة الاندلس المناخين لبلاده فقبلوا يده والتمسوا رضاه واحتقبوا جوائزه وامتطوا مراكبه [2] . واستيقظت في صدره الكريم ، رُوحُ جدّه قصيّ بن حكيم ،

(١) في أواسط شهر المحرم من سنة ٣١٧ عمد مؤنس ونازوك الى خلع المقتدر بالله ، فلم يمض بضعة أيام على خلعه واعتقاله في منزل مؤنس حتى ثار الرجالة والشغب على الحكومة الجديدة منادين « يامقتدر يامنصور » وعثروا بنازوك فقتلوه وصلبوه وكان مخموراً قد شرب طول ليلته . ثم اقتحموا دار مؤنس وفكوا اعتقال المقتدر بالله وأعادوه الى منصب الخلافة

(٢) ان هيبة امير المؤمنين الناصر وحرمته في قلوب ملوك الافرنج لم تكن مقصورة على أيام حياته بل استمرت الى مابعد ذلك . حتى ان أردون بن ادفونش ملك أمم الجلالقة لما جاء

فنزع الى أمنية التوحيد والتجميع ، واستمال الى طاعته بني إدريس أمراء العدوة وملوك زناتة والبربر وغيرهم كما وصف ذلك ابن خلدون في تاريخه ٤ : ١٣٧–١٤٣

﴿ سبب بناء الزهراء ، وذكر موضعها ﴾

بعد مرور ربع قرن على تبوُّء أمير المؤمنين الناصر سدَّة مملكة الاندلس ، وكانت انقضت السنة الخامسة لخلافته ، ماتت سرّية له فتركت مالا كثيراً [1] فأمر الخليفة أن يُفَكَّ بذلك المال أسرى من المسلمين ، وطَلَب في بلد الافرنج أسيراً فلم يجد ، فشكر الله على ذلك . وكانت الرغبة في العمران مستقرَّة يومئذ في قلوب أهل الدولة العربية وعقولهم ، فقالت له (الزهراء) زوجته : « اشتهيتُ لو بنيتَ لي مدينةً سميتها باسمي وتكون خاصةً لي » . فكان ذلك سبب بناء الزهراء التي يبحث الاسبانيون اليوم في أنقاضها . وهي مدينة من ضواحي قرطبة كرسي المملكة ، انشئت تحت جبل العروس من قبلة الجبل شماليَّ قرطبة ، وكانت كأنها الغادة البيضاء في حِجْرِ ذلك الجبل الاسود [1] يجري بينها وبين قرطبة نهر عظيم [2] ، وهو الوادي الكبير الذي تقوم الزهراء على ضفته [3] ، وبين المدينتين مسافة كانت تتراوح بين ثلاثة أميال وسبعة أميال ، بحسب اتساع دائرة العمران أو تقلُّصها في كلتيهما ، ولا سيما في قرطبة التي كانت أبقى على الدهر

الى قرطبة عارضا ولاءه على أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله كما سيأتي في هذا المقال طلب عند وصوله الى باب قرطبة ومروره بين (باب السدة) و (باب الجنان) من القصر أن يدلوه على مكان رمس الناصر ، فأشاروا له الى ما يوازي موضعه من داخل القصر في الروضة ، فخلع قلنسوته وخضع نحو مكان القبر ودعا ، ثم ردّ قلنسوته الى رأسه (انظر نفح الطيب للمقري ١ : ١٨١–١٨٢ المطبعة الازهرية بالقاهرة سنة ١٣٠٢)

(١) محاضرة الابرار لابن العربي (١ : ١٨٩–١٩٠ الطبعة الحجرية بالقاهرة سنة ١٢٨٢ و ١ : ١٤٧–١٤٨ طبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٢٤)

(٢) نفح الطيب (١ : ٢٢٨) (٣) تاريخ الاندلس (بالتركية) للمرحوم ضيا باشا (١ : ١٢٤ الطبعة الثانية بالقسطنطينية سنة ١٣٠٥)

فلم تُصَب من عينه بما أصيبت به جارتها . قال ابن سعيد (في الحلة المذهبة في حلى مملكة قرطبة) نقلا عن الشقندي : « ان العمارة اتصلت في مباني قرطبة والزهراء بحيث أنه كان يُمشَى فيها بضوء السرج عشرة أميال [1] »

﴿ صفة الزهراء ومكنوناتها ﴾

قال ضيا باشا : « كان بناء الزهراء أعجوبةَ الدهر التي لم يخطر مثلُ خيالها في ذهن بَنّاء منذ برأ الله هذا الكون ، ولا تمثَّل رسمٌ كرسمها في عقل مهندس منذ وُجدت العقول » اه

اذا خرج الانسان من الباب الشمالي لقرطبة في الطريق الذي تقع على يساره رُصافة صقر قريش عبد الرحمن الداخل ، سائراً على ضفاف الوادي الكبير بين غابات غبياء ، ورياض فيحاء ، لا يلبث ساعتين أو ثلاثاً حتى يلوح له بابٌ عظيم الهيئة ، دقيق الصنعة جميلها ، وهو باب مدينة الزهراء ، الشارعُ الى الصحراء . ويتصل بالباب من جانبيه سور عظيم يحيط بالمدينة وفيه ثلاثمائة برج حربي . فاذا دخل من هذا الباب أفضى الى حدائق غنّاء ، وميادين واسعة الارجاء ، تطلّ عليها من قصور أعيان المملكة ورجال الدولة مبانٍ سامية . فيستمرّ سائراً بين هذه المجالي للمجد والجمال حتى يصل الى (باب الأقباء) وهو أول أبواب القصر ، ومن ورائه مظاهر السؤدد وصنوف المحاسن ، يليها (باب السدّة الأعظم) . وفي صدر هذه الفراديس (السطحُ المرمَّد) المشرف على الروضة ، المباهي بمجلس الذهب والقبيبة [2] ، وعجيب ماتضمنه من اتقان الصنعة ، وفخامة الهمة ، وحسن المستشرف ، وبراعة الملبس والحلّة : ما بين مرمر مسنون ، وذهب مصون ،

(١) نفح الطيب (١ : ٢١٢) (٢) كان للصرح المرمد قبيبة اتخذ لها الناصر قراميد ذهب وفضة أنفق عليها مالا جسيما ، نقل الفتح في المطمح (ص ٤٠) أن القاضي منذر بن سعيد دخل على أمير المؤمنين الناصر فوعظه وأنبه ينهي الله تعالى عن مثل ذلك ، فبكى الناصر وامر بنقض سقف القبيبة وأعاد قراميدها ترابا

وعمد كأنها أفرغت في القوالب ، ونقوش كالرياض ، وبرك عظيمة محكمة الصنعة وحياض ، وتماثيل عجيبة الاشخاص ، لا تهتدي الاوهام الى سبيل استقصاء التعبير عنها . وفي السطح الممرّد من جانب القبلة (الابهاء المذهبة) ، يتصل بها (الفُصلان) عن يمينها ويسارها ، ويلي ذلك (المجلسان) شرقاً وغرباً

وان القاعات الكثيرة التي احتوتها الابهاء المذهبة وما اتصل بها من قاعات الفصلان والمجلسين لا تكاد تمايز الا بتنوّع مشاهدها ، واختلاف مناظرها . لذلك كانت صالة كلها لسرير الملك ، فكان هذا السرير في (البهو الاوسط) من الابهاء القبلية المذهبة يوم احتفل أمير المؤمنين الحَكَم المستنصر بأخذ البيعة لنفسه عند وفاة أبيه عبد الرحمن الناصر رحمه الله ، ثم كان سرير الملك في (المجلس الشرقي) من مجالس السطح الممرّد يوم تشرّف ملكُ الاسبان أردون بن أدفونش بالمثول بين يدي أمير المؤمنين المستنصر وحظي بتقبيل يده في حفلة قلّما شهد الدّهر مثلها كما سترى بعد

وعلى ذكر (المجلس الشرقي) أقول انه كان يسمى (المؤنس) وفيه (بيت المنام) . وفي وسطه نُصب (الحوض الاخضر المنقوش) الذي جلبه أحمد الفيلسوف مع ربيع الاسقف القادم من بيت المقدس ، وهو حوض مذهب ، وفيه نقوش وتماثيل وصور على صور الانسان ، وأقيم عليه اثنا عشر تمثالا من الذهب الاحمر مرصعة بالدرّ النفيس الغالي مما عمل بدار الصناعة بقرطبة : صورة أسد الى جانبه غزال الى جانبه تمساح وفيما يقابله ثعبان وعُقاب وفيل وفي الجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر ، وكل ذلك من ذهب مرصع بالجوهر النفيس ويخرج الماء من أفواهها

وفي الزهراء المجلس المسمى (قصر الخلافة) وكان سمكه من الذهب والرخام الغليظ الصافي لونه ، المتلوّنة أجناسه . وكانت حيطان هذا المجلس مثل ذلك .

وجعلت في وسطه (اليتيمة) التي أتحف الناصرَ بها (أليونُ) ملك القسطنطينية وكانت قوائم هذا القصر من الذهب والفضة . وفي وسط مجلس الخلافة حوض عظيم مملوء بالزئبق . وكان في كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والآبنوس المرصَّع بالذهب وأصناف الجوهر قامت على سواري من الرخام الملوّن والبلّور الصافي . وكانت الشمس تدخل على تلك الابواب فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه فيصير من ذلك نور يأخذ بالابصار . وكان الناصر اذا اراد أن يفزع أحداً من أهل مجلسه أومأ الى أحد مواليه فيحرّك ذلك الزئبق فيظهر في المجلس كلمعان البرق من النور ويأخذ بمجامع القلوب حتى يخيل لكل من في المجلس أن المحلّ قد طار بهم ما دام الزئبق يتحرّك

وللقصر مسجد جامع مؤلف من خمسة أبهاء عجيبة الصنعة ، طوله من القبلة الى الجوف ـ حاشا المقصورة ـ ٣٠ ذراعاً ، وعرض البهو الاوسط من أبهائه من الشرق الى الغرب ١٣ ذراعاً ، وعرض كل بهو من الابهاء الاربعة المكتنفة له ١٢ ذراعاً . وطول صحنه المكشوف من القبلة الى الجوف ٤٣ ذراعاً ، وعرضه من الشرق الى الغرب ٤١ ذراعاً . وجميعه مفروش بالرخام الخزي ، وفي وسطه فوّارة يجري فيها الماء . فطول هذا المسجد أجمع من القبلة الى الجوف ـ سوى المحراب ـ ٩٧ ذراعاً وعرضه من الشرق الى الغرب ٥٩ ذراعاً . وطول صومعته في الهواء ٤٠ ذراعاً وعرضها ١٠ أذرع في مثلها . ومنبره بديع في نهاية الحسن ، حُظرت حوله مقصورة عجيبة الصنعة

وقد اختار أمير المؤمنين الناصر للخطابة على منبر الزهراء خطيباً من أتقى الناس لله وأجهرهم بكلمة الحق وأصرحهم وعظاً لامير المؤمنين بلا محاباة ولا شطط ، وهذا الخطيب هو القاضي منذر بن سعيد الذي كان كلامه العجيب يبهر العقول جزالة ، ويملأ الاسماع جلالة . وكان له في انتقاد أعمال الدولة كلام

يلقيه من منبر الزهراء على مسمع الخليفة في محضر الناس فيتلقاه الخليفة بالرضى والخشوع لله ، ولو ألقي مثله على أعرق الملوك ديموقراطيةً في الامم الاخرى لكان أقلّ ما يعاقب به قائله العزل

وكانت (خزانة الكتب العلمية) في الزهراء أيام أمير المؤمنين المستنصر من أعظم خزائن الدنيا . روى تليدٌ الفتى القيّم على هذه الخزانة فيما حدّث عنه الحافظ أبو محمد بن حزم أن عدّة الفهارس التي فيها تسمية الكتب ٤٤ فهرسة في كل فهرسة ٢٠ ورقة ليس فيها إلا ذكر الدواوين فقط [1] . قال المقري : كان المستنصر عالماً نبيها صافي السريرة . أخذ العلم عن قاسم بن اصبغ وأحمد بن رحيم ومحمد بن عبد السلام الخشني وزكريا بن خطاب وأكثر عنه ، وأجاز له ثابت ابن قاسم وكتب عن خلق كثير سوى هؤلاء ، وكان يستجلب المصنفات من الاقاليم والنواحي باذلاً فيها ما أمكن من الاموال حتى ضاقت عنها خزائنه . وكان ذا غرام بها قد آثر ذلك على لذات الملوك . وكان في المعرفة بالرجال والاخبار والانساب أحوَذياً نسيج وحده ، وكان ثقة فيما ينقله . وقلّما يوجد كتاب من خزائنه الا وله فيه قراءة أو نظر في أيّ فن كان ، ويكتب نسب المؤلف ومولده ووفاته ، ويأتي من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد الاّ عنده . قال ابن خلدون : وأرسل ألف دينار من الذهب العين ثمنا لنسخة من كتاب الاغاني سنة تأليفه ـ وكان نسبُ مؤلفه أبي الفرج في بني أمية ـ فظهر كتاب الاغاني في الاندلس قبل أن يظهر في العراق موطن المؤلف

وفي الزهراء (البحيرة العظمى) ـ غير ما فيها من البرك المتعدّدة ـ وفي مياهها من صنوف الاسماك والحيتان الالوف الكثيرة . وكانوا يقدّرون عدد

(١) التكملة لابن الابار (ص ٢٧٦) وابن خلدون (٤ : ١٤٦) ونفح الطيب (١ : ١٨٤)

الخبز الذي يُرمى لهذه الحيتان والاسماك باثني عشر الف خبزة في كل يوم ، وينقع لها من الحمّص الاسود ستة أقفزة يوميا

وقصور الحرم في الزهراء هي غير ما وصفناه من مجالس الدولة ، وقد تزيد عن هذه فخامة وعظمة . وقد نصّ ابن العربي في محاضرة الابرار على أن صورة (الزهراء) زوجة الناصر كانت منقوشة على باب القصر ، والمعقول أن هذا النقش كان على القصر الخاصّ بالحرم

وفي الزهراء حمامان أحدهما للقصر ، والثاني للعامة

وفيها محلاّت للوحش فسيحة الفناء . ومسارح للطيور مظلة بالشباك

وفيها دور الصناعة والآلات : آلات السلاح للحرب ، والحلي للزينة . ومصانع التماثيل والنحت والزخارف ، وغير ذلك من المهن والصناعات

ولم تخلُ الزهراء في جانب هذه الفراديس من سجن يسمى (المطبق) ذكره صاحب (روضة الازهار) فيما نقله عنه المقّري في نفح الطيب (١ : ٢٨١)

﴿ كيف بنيت الزهراء ؟ ﴾

أراد أمير المؤمنين الناصر رحمه الله أن يؤسس بنيانه على التقوى ، فزان الزهراء بمسجدها الجامع الذي تقدّم وصفه . نقل صاحب نفح الطيب (١ : ٢٦٤) عن ابن الفرضي وغيره انه كان يعمل في جامع الزهراء من حذّاق الفعلة كل يوم ألف نسمة منها ٣٠٠ بنّاء و ٢٠٠ نجّار و ٥٠٠ من الاجراء وسائر الصناع ، فاستتمّ بنيانه وإتقانه في ثمانية وأربعين يوماً ، وهي سرعة لا يكاد يكون لها نظير . وقد وضع المنبر في مكانه من هذا المسجد عند اكماله يوم الخميس لتسع بقين من شعبان سنة ٣٢٩ هـ وأول جماعة صليت فيه صلاةُ المغرب من ليلة الجمعة لثمان بقين من شعبان ومن الغد صلى الناصر فيه الجمعة . وأول من خطب فيه القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي عيسى

وقال المؤرخ ابو مروان ابن حيان صاحب الشرطة : ألفيت بخط ابن دجون الفقيه قال مسلمة بن عبد الله العريف المهندس « بدأ عبد الرحمن الناصر بعمارة الزهراء أول سنة ٣٢٥ وكان مبلغ ما ينفق فيها كل يوم من الصخر المنحوت المنجور المعدّل ٦٠٠٠ صخرة سوى الصخر المنصرف في التبليط فانه لم يدخل في هذا العدد . وكان يخدم في الزهراء كل يوم ١٤٠٠ بغل منها ٤٠٠ زوامل الناصر ومن دواب الاكرية الراتبة للخدمة ١٠٠٠ بغل لكل منها ثلاثة مناقيل في الشهر وكان برد الزهراء من الجير والجص في كل ثالث من الايام ١١٠٠ حمل »

ونقل صاحب نفح الطيب (١ : ٢٤٦) عن مؤرخ آخر أنه كان يتصرّف في عمارة الزهراء كل يوم عشرة آلاف رجل

وفي نفح الطيب (١ : ٢٦٤) وجلب اليها الرخام من قرطاجنة وافريقية وتونس. وكان الذين يجلبونه : عبد الله بن يونس عريف البنّائين وحسن وعلي بن جعفر الاسكندراني ، وكان الناصر يصلهم على كل رخامة بثلاثة دنانير وعلى كل سارية بثمانية دنانير . واشتملت الزهراء على ٤٣١٦ سارية ما بين كبيرة وصغيرة وحاملة ومحمولة ، فكان عدد ما جلب منها من افريقية ١٠١٣ ومن رومة ١٩ وأهدى اليه ملك القسطنطينية ١٤٠ وسائرها من مقاطع الاندلس تركونة وغيرها . والرخام المجزّع من رية والوردي والاخضر من افريقية . وعدد مصاريع أبواب الزهراء صغارها وكبارها ١٥١٣ باباً كلها ملبسة بالحديد والنحاس المموّه

وكان المتولي للبنيان ابنه الحكم لم يتّكل فيه الناصر على أمين غيره . واتصل بنيان الزهراء أيام الناصر ٢٥ سنة شطر خلافته ، ثم اتصل بعد وفاته خلافة ابنه الحكم كلها وكانت ١٥ عاماً وأشهراً . وقدّروا النفقة عليها زمن الناصر بثلاثمائة الف دينار كل علم أي سبعة ملايين ونصفاً زمن الناصر . وقدّروا مجموع النفقة بثمانين مُدْياً وسبعة أقفزة من الدراهم القاسمية والمُدْي مكيال يسع تسعة عشر صاعاً

والصاع أربع حفنات بكفي الرجل الذي ليس بعظيم الكفين ولا صغيرهما

ونقل صاحب نفح الطيب (١ : ٢٦٤) أنه لما بنى الناصر قصر الزهراء المتناهي في الجلالة والفخامة أطبق الناس على أنه لم يبن مثله في الاسلام ألبتة ، وما دخل اليه أحد من سائر البلاد النائية والنحل المختلفة من ملك وارد ، أو رسول وافد ، وتاجر وجهبذ — وفي هذه الطبقات من الناس تكون المعرفة والفطنة — إلا وكلهم قطع أنه لم ير له شبهاً ، بل لم يسمع به ، بل لم يتوهم كون مثله . حتى أنه كان أعجب ما يوصله القاطع الى الاندلس في تلك العصور النظر اليه والتحدث عنه

﴿ ملك اسباني بين يدي الخليفة في الزهراء ﴾

في أوائل سنة ٣٥١ وهي السنة الثانية لخلافة أمير المؤمنين المستنصر أخذ يتأهب لحرب الملك الاسباني أردون بن أدفونش . فلما علم أردون بذلك سار الى باب المستنصر في عشرين من وجوه أصحابه غير طالب اذن ولا مستظهر بعهد ، ثقةً منه بنبل أخلاق العرب وشرف نفوسهم . فخرج لاستقبالهم هشام المصحفي في جيش عظيم كامل التعبية . وبعد ثلاثة أيام من وصولهم أقيمت حفلة مثول الملك الاسباني بين يدي الخليفة ، فبثت الجيوش ، وعرضت العدد والاسلحة ومظاهر الزينة ، وقعد الخليفة على سرير الملك في (المجلس الشرقي) من مجالس السطح الممرد في الزهراء . ثم أتى محمد بن طميس بالملك أردون راكباً هو وأصحابه الخيول المطهمة تحف به جماعة من نصارى وجوه أهل الذمة بالاندلس : يؤنسونه ويبصّرونه ، فيهم الوليد بن حيزون قاضي النصارى بقرطبة وعبيد الله بن قاسم مطران طليطلة وغيرهما . فلما دخل الملك الاسباني مدينة الزهراء من بابها الشارع الى الصحراء رأى فرسان الحشم وطبقات الجند والرماة منظمين أكمل تنظيم ومصطفين موكبا اثر موكب من (باب المدينة) الى (باب الاقباء) . ومنه الى

خارج (باب السدة الاعظم) فرسان العبيد ، وعلى نفس باب السدة البوابون وأعوانهم في أجمل بزّة وأفخر مظهر ، وفي الميادين التي وراء باب السدة الاعظم رجالة العبيد عليهم الجواشن والاقبية وعلى رءوسهم البيضات الصقلبية وبأيديهم التراس الملوّنة والاسلحة المزينة وقد انتظموا صفين الى آخر الفصل ، وبعد هؤلاء صفوف العبيد الفحول شاكين في الاسلحة الرائقة والعدة الكاملة ، يليهم الفتيان الصقالبة لابسين اللباس الخاص بهم وبأيديهم السيوف ، مصطفين في الفصلان ، وبعدهم الفتيان الوصفاء عليهم الدروع السابغة والسيوف الحالية صفين منتظمين في السطح المتصل بالفصلان . ووراء ذلك المجلس الشرقي وفيه أكابر الفتيان يمينا وشمالاً الى آخر البهو وفي صدره سرير الملك وعليه الخليفة المستنصر وفي جانبيه عظماء المملكة وأشرافها وخول العلماء والخطباء وأكابر القواد

وكان على الملك الاسباني ثوب ديباجي رومي أبيض وبليوان من جنسه وفي لونه وعلى رأسه قلنسوة رومية منظومة بجوهر . فدخل بين صفي الترتيب يقلب الطرف في نظم الصفوف ويجيل الفكر في كثرتها وتظاهر أسلحتها ورائق حليتها ، فراعه وأصحابه ما أبصروه ، وصلّبوا على وجوههم ، وتأمّلوا ناكسي رءوسهم غاضّين من أجفانهم قد سكرت أبصارهم . فلما وصلوا الى باب الاقباء أول قصر الزهراء الرسمي ترجل جميع من كان خرج الى لقائه وتقدّم الملك أردون وخاصة قوّامه على دوابهم حتى انتهوا الى باب السدّة الأعظم ، فأمر القوامس بالترجل هنالك والمشي على الاقدام فترجلوا ، ودخل الملك اردون وحده راكباً مع محمد ابن طميس ، فأنزل في برطل البهو الأوسط من الابهاء القبلية التي بدار الجند على كرسي مرتفع مكسوّ الأوصال بالفضة فقعد اردون على الكرسي وقعد أصحابه بين يديه . وخرج الاذن للملك اردون من الخليفة المستنصر بالدخول عليه فتقدّم يمشي وأصحابه يتبعونه الى أن وصل الى السطح الممرّد ، فلما قابل المجلس الشرقيّ

الذي فيه المستنصر وقف وكشف رأسه وخلع برنسه وبقي حاسراً ، إعظاماً لما بان له من الدنوّ الى السرير . واستُنهِض فمضى بين الصفّين المرتبين في ساحة السطح الى أن قطع السطح وانتهى الى باب البهو . فلما قابل السرير خرّ ساجداً سويعةً ، ثم استوى قائماً ، ثم تقدم خطوات وعاد الى السجود ووالى ذلك مراراً الى أن قدّم بين يدي الخليفة وأهوى الى يده فناوله إياها وكر راجعاً مقهقراً على عقبه الى وساد ديباج مثقل بالذهب جعل له هنالك ووضع على قدر عشرة أذرع من السرير . فجلس عليه والبُهر قد علاه . وأُنهض خلفه من استدنى من قوّامه وأتباعه فدنوا ممتثلين في تكرير الخنوع ، وناولهم الخليفة يده فعبلوها وانصرفوا مقهقرين فوقفوا على رأس ملكهم . ووصل بوصولهم وليد بن حيزون قاضي النصارى بقرطبة فكان الترجمانَ عن الملك اردون ذلك اليوم . فأطرق الخليفة عن تكليم الملك أثر قعوده أمامه وقتاً كيما يفرخ روعه . فلما رأى أن قد خفض عليه افتتح تكليمه فقال : « ليسرّكَ إقبالك ، ويُغبطْكَ تأميلك . فلدَيْنا لك من حسن رأينا ، ورحب قبولنا ، فوق ماقد طلبتَه »

فلما ترجم له كلام الخليفة تطلق وجهه وانحط عن رتبته فقبّل البساط وقال : « أنا عبد أمير المؤمنين مولاي ، المتورّكُ على فضله ، القاصد الى مجده ، المحكم في نفسه ورجاله فحيث وضعني من فضله ، وعوّضني من خدمته ، رجوت أن اتقدم فيه بنيةً صادقة ، ونصيحة خالصة »

فقال له الخليفة « أنت عندنا بمحل من يستحق حسن رأينا . وسينالك من تقديمنا لك ، وتفضيلنا اياك على أهل ملتك ، ماينغبطك وتتعرّف به فضل جنوحك الينا ، واستظلالك بظل سلطاننا »

فعاد اردون الى السجود عند فهم مقالة الخليفة وابتهل داعياً . ثم بعد محاورات أخرى قام للانصراف مقهقراً لايولي الخليفةَ ظهره ، وقد تكنفه

الفتيان فأخرجوه الى المجلس الغربي في السطح الممرّد وقد علاه البهر وأذهله الروع من هول ماباشره وجلالة ما عاينه . وفي المجلس الغربي أجلسوه على وساد مثقل بالذهب ، وأمر الحاجب جعفر فصبت عليه الخلع التي أمر له بها الخليفة وهي درّاعة منسوجة بالذهب وبرنس مثلها له لوزة مفرغة من خالص التبر مرصعة بالجوهر والياقوت ملأت عينه تجلّة فخرّ ساجداً وأعلن بالدعاء . ثم خلع الحاجب على أصحابه واحداً واحداً على قدر استحقاقهم

﴿ الحياة في الزهراء ﴾

لقد ألّف أسلافنا في وصف الزهراء والحياة فيها مؤلفات فضلاً عن الابواب والفصول التي عقدوها في كتبهم لذلك . وحسبنا في هذه العجالة أن نذكر لك أن عدد الفتيان الذين كانوا في خدمة الخليفة وأهل بيته في الزهراء ١٣٧٥٠ دخالتهم من اللحم كل يوم ـ سوى الدجاج والحجل وصنوف الطير وأنواع السمك والحوت ـ ١٣٠٠٠ رطل . وعدة النساء في قسم الحرم من هذا القصر ٦٣١٤ امرأة بين صغار وكبار وخدم . وعدد الصبيان الصقالبة ٣٧٨٧ على ماذكره المؤرخون. وكان هؤلاء جميعاً ـ من حرم الخليفة الى الجواري والفتيان ـ يخلصون الخدمة والمحبة لباني الزهراء ويصرّفون وجوه الرأي في ادخال السرور عليه . قال صاحب نفح الطيب (١ : ١٦٨) أراد أمير المؤمنين الناصر الفصد فقعد بالبهو في المجلس الكبير المشرف بأعلى مدينته الزهراء ، واستدعى الطبيب لذلك فأخذ الآلة وجسّ يد الناصر فبينما هو اذ أطل زرزور (طائر) فصدعلى اناء ذهب بالمجلس وأنشد :

أيها الفاصد رفقاً بأمير المؤمنينا
انما تفصد عرقاً فيه محيا العالمينا

فاستظرف أمير المؤمنين ذلك وسرّ به وسأل عمن اهتدى الى ذلك وعلّم الزرزور فذكر له أن السيدة الكبرى أم وليّ العهد صنعت ذلك وأعدّته لهذا الأمر ، فوهب لها ما يزيد على ثلاثين ألف دينار

﴿ خراب الزهراء ﴾

ظلت الزهراء فردوس الارض زمن أمير المؤمنين الناصر وابنه المستنصر وحفيده هشام المؤيد ، حتى أن الوزير المنصور بن أبي عامر سجن في مطبقها الحاجب جعفراً بن عثمان المصحفي زمن المؤيد . ولكن لما نشبت الثورة المشئومة على هذا الخليفة الضعيف يوم الثلاثاء ٢٦ جمادى الثانية سنة ٣٩٩ احتجاجاً على جعله ولاية العهد الى عبد الرحمن بن أبي عامر دون رجال بني أمية وسائر بيوت قريش اقتحم الشعب قرطبة والزهراء ، فأسقطوا هشاماً ، وأزالوا دولة بني عامر ، ونهبوا قصور المملكة ، حتى أن بعض ما نهب في هذه الثورة وصل الى بغداد وغيرها من البلاد المشرقية ، وبيع في اسواقها . نقل صاحب نفح الطيب (١ : ٢٧٠) عن ابن الرقيق أن ذلك كله كان على يد عشرة رجال لخامين وجزارين وزبالين

بهذه الحادثة خلت الزهراء من أهلها ، غير أن مبانيها ظلت قائمة بعد ذلك . وفي قلائد العقيان (ص ١٠ ـ ١١ بولاق سنة ١٢٨٣) ما يدلّ على أن أعيان المملكة في قرطبة كانوا يقصدون الزهراء للتنزه في قصورها ورياضها زمن المعتمد بن عباد (بين سنتي ٤٦١ و ٤٨٤) بل كانت لا تزال بقايا منها زمن ابن العربي (٥٦٠ ـ ٦٣٨) فقد زارها وقرأ على بابها شعراً في رثائها . ويؤكد ضيا باشا في تاريخ الأندلس (١ : ١٢٥) أن الاسبانيين هم الذين أعملوا فيها معاول التخريب فمحوا آثارها وقضوا على بقاياها . ولله الأمر من قبل ومن بعد